ذكر الله

جاء فى سورة الأنفال وصف للمؤمنين فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون) .

وقد شرح القرطبى هذه الآية بقوله : وصف الله فى هذه الآية المؤمنين بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية (وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، وقال : (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) ، فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب والوجل والفزع من عذاب الله فلاتناقض ، وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله : (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهاً مثانى تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله ، وإن كانوا يخافون الله ، انتهى كلام القرطبى .

وقد جاء فى تفسير الجلالين ، فى شرح هذه الآية الأخيرة « يرتعد عند ذكر وعيده جلود الذين يخشون ربهم ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم عند ذكر وعده » .

وفيما جاء فى تفسير القرطبى ، وفى تفسير الجلالين ، ما يدل على أن تفسير الآية الثانية من سورة الأنفال ، بما ذهب إليه القرطبى نفسه . وساير فيه جميع المفسرين القدامى والمحدثين تقريبًا ، تعارض يهدر تفسيرهم ، إذ لا سبيل إلى استقامة المعنى ودفع هذا التعارض ، إلا بتقدير أن فى هذه الآية الكريمة ، مضافًا محذوفًا يسبق لفظ الجلالة ، وهذا المضاف المحذوف ، يمكن تقديره إما بوعيد ، أو بعذاب أو بعقاب ، أو أى لفظ آخر يؤدى هذا المعنى ، وبذلك يتضح معنى هذه الآية فى

يسر . وأن القصد منها أن المؤمنين حقًّا ، هم الذين إذا ذكر وعيد الله وعذابه ، وعقابه ، وجلت قلوبهم ، لأنهم يصدقون هذا الوعيد ويؤمنون بهذا العذاب ، ويعلمون يقينًا بأن البعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق والجحيم حق ، وإذا تليت عليهم آياته — آيات الله — زادتهم إيمانًا .

وهذا التأويل يتفق ويتسق مع مبدأ كلى من مبادئ العقيدة الإسلامية ، جاء فى سورة الرعد ، إذ ورد فيها (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أقول إن هذا مبدأ كلى ، ذلك لأن إله المسلمين هو رب العالمين ، وهو رب المشارق والمغارب وخالق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وقد وسع كل شىء رحمة وعلمًا ، كتب على نفسه الرحمة . ولذا فإن ذكره يبعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، وينزل عليهم السكينة ، ويذهب عنهم الحزن ، ويصرف عن نفوسهم الفزع .

وقول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) خطاب موجه إلى المؤمنين والكافرين على السواء ، فالمؤمنون يعلمهم الله بهذا الخطاب أنهم بفضل إيمانهم به ، واطمئنانهم إليه وثقتهم به ينزل على قلوبهم السكينة . ويبعث فى نفوسهم الطمأنينة ، ويثبتهم فى وجه الشدائد والملمات ، ويحميهم من الفزع فى النوازل والأزمات ، إذ يعلمهم أن مع العسر يسراً ، وأن الذين يتقونه سبحانه ويخشونه يجعل لهم من كل ضيق مخرجًا ، وهم بعد هذا كله يفرحون بما آتاهم ، ولا ييأسون على ما فاتهم . أما الكافرون ففى هم مقيم ، وحزن متصل فى النعمة والنقمة على السواء ، ففى النعمة لا يقنعون بها ، ولا ينفكون يطلبون المزيد ، ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضل ، ويخشون زوال مالهم ، وهلاك سلطانهم ، يشفقون من أن يشاركهم فيه مشارك من ذوى القربى ، أو المنافسين . وهم إن نزلت بهم المصائب ذهبت نفوسهم شعاعًا ، وتخلى عنهم عزمهم

وضاقت الدنيا عليهم بما رحبت وضاقت عليهم كذلك أنفسهم ؛ ذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ، فيأمرهم بالفحشاء ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا .

وهذه الميزة التى وعد الله بها عباده المتقين والمحسنين ، والمخبتين والمؤمنين هى سند المؤمنين وزادهم ، لا فى خاصة حياتهم ، بل فى جهادهم الشرك ، والزيغ ، والضلال ، وحربهم الرذائل والفواحش ، وهى عدتهم فى دعوتهم إلى الخير ، والنهى عن المنكر ، فإذا زالت عنهم طمأنينتهم التى ينزلها الله على قلوبهم عند ذكره تعالى وتبارك ، انثلمت سيوفهم ، فلم تعد تقطع ، وجمدت ألسنتهم فلم تعد تنطق ، وانطفأ نورهم فلم يعودوا يهدون ولا يهتدون ، فهم — بغير هذه العدة — يتساوون مع غيرهم من سائر الناس ، بل يتفوق عليهم أهل الدنيا ، بما لديهم من مال ، وبما حصلوا من خبرة وبقدرتهم على الإغراء والخداع .

وقد جاء فى تفسير المنار ، فى تفسير آية (فمن تبع هداى) من سورة البقرة ، كلام يتصل بما نحن فى صدده ننقله هنا :

الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب . وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة فى مقابلة ما تحدثه كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب وما تثيره من كوامن الرعب ، فالمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت . ولا يحزنون على ما فات . لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الجنان ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه ، أو ما فقده ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب فى الكسب ، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذى يقع أو يتوقع » .

وقد جاء فى شرح القرطبى فى تفسير الآية الثانية من الأنفال التى

نحن بصددها :

« روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبى صلى الله عليه وسلم . حتى أحفوه فى المسألة — أى أكثروا عليه فى السؤال . وألحوا عليه إلحاحاً شديداً فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلونى : لا تسألونى عن شىء إلا بينته لكم . مادمت فى مقامى هذا » فلما سمع القوم هذا سكتوا ووجموا ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر . قال أنس . فجعلت ألتفت يميناً وشمالا . فإذا كل إنسان لاث رأسه فى ثوبه يبكى » .

ومعنى هذا الحديث ، أن المسلمين توهموا أن الرسول ينذرهم بعقاب . أوشك أن يحل بهم . لذلك وجموا ، وكفوا عن القول ، ثم أخذوا يبكون فى صمت وخشوع ، فلم يكن بكاؤهم لمجرد أن الرسول وقف يعظهم ، فالبكاء لم يكن لأن الرسول وقف يخطبهم . وإنما لأنهم أحسوا أن فى وقفة الرسول على المنبر ولهجته فى الخطاب ، بعد طول المحاجة والسؤال ، أن شراً موشكاً أن ينزل بهم ، لذلك قال أنس رضى الله عنه « ورهبوا أن يكون كلام الرسول بين يدى أمر حضر » .

وقد أورد القرطبى فى تفسير الآية ذاتها نقلا عن المثنى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه .

ثم عن سويد : قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية ، أحسبه قال « فينزع عنه » وهذا قول حسن ، فالإنسان يذكر الله ، فى موقف يهم فيه بمعصية أو بظلم ، فيرتعد ويفرق ، ويخشى عقاب الله ، فينزع عنه ، أى يعدل عنه .

فالإيمان بالله — عند المسلمين — هو أمان واطمئنان ، لا فزع ولا خوف ، ولذلك فإن آيات الكتاب العزيز ، تترى بأن الذين آمنوا لا خوف عليهم — ولا هم يحزنون ، فى سورة فصلت : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ، ولاتحزنوا ،

وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) . وفى سورة طه : (ومن يعمل من الصالحات . وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضماً) ؛ وفى سورة الجن : (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى كليمه موسى (يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون) ؛ فالخوف عذاب يصيب به الله الكافرين ؛ والمنافقين : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

أما (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأن الذين اتبعوا هدى الله (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ؛ (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ؛ (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وليس هذا كله إلا مصداق وعد الله (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) ، ولا يرد الخوف من مقام الله ، أو امتحانه ، أو بلائه إلا مقروناً بالبشرى بالخير والنعمة وحسن المنقلب : (ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) ويبتلى الله المؤمن بشىء من الخوف ، على سبيل الامتحان ، إذ لايلبث كتاب الله العزيز أن يبشر الصابرين أى الناجحين فى الامتحان بخير عاقبة (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين) .

والخوف من مقام الله ، ينصرف كله إلى عقاب الله ، ووعيده ، فالخوف شعور مذل ، وإحساس مهين ، لا يبتلى الله به عباده المتقين ، ولكن يصاب به من خلا قلبه عن سكينة الإيمان ، وطمأنينة الثقة بعقيدة تثبت الإنسان وتقيه زعازع الدنيا ، ومخاوف الأطماع ، وخيالات وأشباح الشهوات .

وكما أن آيات القرآن التى تقرر أن المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون ؛ فإنها تفيض كذلك بعبارة (وبشر المؤمنين) ؛ (وبشر المحسنين) ؛ (وبشر المخبتين) ؛ وتأتى هذه البشائر فى صيغ عديدة وإن كان المعنى ثابتاً ؛ من ذلك : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) والقرآن هو (هدى وبشرى للمؤمنين) وهؤلاء المؤمنون (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

والمؤمنون فى ظل هذه البشائر يمضون فى الحياة ؛ سعداء أقوياء تزيدهم السعادة إيماناً ؛ . كما يزيدهم الامتحان والابتلاء ؛ فهم فى الخالين ، يعرفون أنهم يؤدون واجباً سامياً هو ضمان حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ؛ وأنهم يتقلبون فى رحمة الله وفضله ؛ مهما ادلهمت الأمور ؛ وبدا أنه لا مخرج ؛ ولا مغيث . وتبلغ قوتهم الحد الذى لا يخشون معه الناس جميعاً إذا اجتمعوا عليهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) فى حين أن الكافرين ينطبق عليهم قول القرآن : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) . وهذا الكلام كله يصلح مدخلا إلى حديث طويل عن السمة البارزة فى حضارة الإسلام ؛ وحديث أطول منه ؛ عن مستقبل الإسلام ، وموقفه من المذاهب السائدة اليوم .

فحضارة الإسلام النابعة من عقيدته قامت على إشاعة الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، لطول ما تحدثت عن الرحمة ؛ والمودة ووصل الرحم ، وإيتاء ذى القربى ، ومنح الصدقات للفقراء والمساكين ، وتحرير العبيد ، والمساواة ، ودفع الحرج ؛ ورفع المشقة ؛ والدعوة إلى التيسير والتخفيف ، والحض على الرفق والحلم ، وترك المراءاة ، والأخذ بالظاهر ، والتنفير من التنطع والتكلف ؛ وهذه كلها سدود تقف فى طريق الخوف والفزع وتثبت أسس الطمأنينة ، فى بلد شملته بهجة الإخاء الإنسانى فاندفع العلماء يقرءون ويبحثون ، وينطلقون إلى أجواز الفضاء ، وينقبون فى باطن الأرض ، ويهتدون إلى حقائق ما سبقهم إليها سابق ، ثم أقيمت المدن ، وشقت

الطرق ، وحفرت الترع ، ورويت الأرض البور ، وتسابق الفنانون فى النقش والتصوير ، والنسج والتطريز ، والعمارة والبناء ، والموسيقى والغناء ، وأصبحت مدن الإسلام وعواصمه جامعات للعلم ، ومعاهد للدرس ، ومتاحف للفن ، وندوات للبحث ، وخزائن للكتب ، ومجالات للابتكار والابتداع ، فى عالم الفكر والصناعة ، وفى دنيا العلم والزراعة .

ثم لما أدال الدهر على المسلمين ، وانطفأت مشاعل العلم فى معاهدهم ، ومدارسهم ، وأقفرت حلقات الدرس فى جوامعهم ومساجدهم ، غلبت على الفكر الإسلامى ، فى انحداره وغروبه ، فكرة أن الدين الحق هو الذى يبيت فى ظله المسلمون على خوف ، ويستيقظون فى خوف ، وأن المسلم الصادق هو الذى يتوهم فى كل عمل يأتيه إثما ، وفى كل قول يسمعه كفراً ، وفى كل رأى يدلى به صاحب رأى إلحاداً حتى كان الإسلام ، صنواً للوسوسة ، أو شعوراً بالاضطهاد . وقد زاد من هذه البلية أن علماءهم ، أشفقوا — زمناً غير قصير — من الاجتهادات بدعوى أن السلطان فى بلاد المسلمين ، قد انتقل إلى أقوام لا صلة لهم بالدين ، ولا هم لهم إلا تثبيت ملكهم ، واسترقاق رعاياهم ، وخطف أرزاقهم ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وهم فى ظلمهم وطغيانهم فى حاجة إلى من يحلل حرامهم ، ويبرر طغيانهم ، فلو فتح باب الاجتهاد ، دخل منه أدعياء الدين أفواجاً ، لاشرحاً لنص فى القرآن ولا استلهاماً لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا قياساً على حكم ، انتهى إليه إجماع المسلمين ، بل تقرباً إلى الحكم وزلفى . والحق أن هذا الخطر واقع ، ولا توهم فيه ، ولا مبالغة ، ولكن هذا دور (ذكر الله) وأثره ، فإذا كان ذكر الله ، تطمئن به القلوب ، فلا خوف من صاحب سلطان مهما طغى ، ولا من حامل سيف مهما هدد أو أرعد ، وقد واجه علماء الإسلام ، والدين لايزال غضاً ، محن اعتداء أصحاب السلطان فاستمسكوا بدينهم ، واحتملوا السجن والأذى ، وأشرفوا على الموت ، ولم يهنوا أو يضعفوا ، ولا يمكن

أن يكون الدين دينًا : إلا إذا أعان على احتمال المشاق ، والصبر على المكاره ، مع الدعوة الملحة إلى أحكامه الكبرى : فى مثابرة لاتنقطع ، وهمة لاتفتر .

فإذا عاد المسلمون داخل أوطانهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأوائل ، كانت للمسلمين حياة بهيجة مشرقة . تزدان بالذوق والرقة ، واللطف والألفة وتتعانق فيها الفرحة بالعمل : والترحيب بالجهاد : وثابت إليهم الثقة بأنفسهم : فناقشوا ، وقرءوا : وعرضوا أفكارهم ودافعوا عنها ، وسمعوا كلام الناس ، وأسمعوهم كلامهم ، وأحسوا أن دينهم مطلوب ، وأن دورهم باق لهم ومحفوظ ، وأن الإنسانية التى أحاطت بها المصائب والكوارث ، وسدت أمامهم سبل النجاة ، وتراكمت بين يديها المشكلات التى لا تحل ، والأزمات التى لاتنفرج : فى أشد الحاجة إلى رأى علماء المسلمين الذى ورثوا عن أجدادهم تقاليد العلم الصحيح الذى لا يخاف ، ولا يهرب ، والذى يلقى بنفسه فى أمواج الألغاز والمعميات ، يسبح ما استطاع السبح ثم يقف ، ليستجم ، ويستعيد قواه ، ثم يستأنف العوم ، لا يخاف الغرق ، ولا يتقى البلل .

والحق أننا لا نطمع فى أن يدرك المسلمون ، هذه الحقائق المهجورة ، من دينهم ، فى يوم وليلة ، فالأمر يحتاج إلى جهاد طويل ، دونه العقبات والحوائل لأن الغاية : ليست بالصغيرة ، ولا بالقريبة ، ولكنها تستحق احتمال المشقة ، والصبر على المكاره .

ولو فعلنا لخرج جيل من المسلمين الأقوياء المطمئنين ، يبعثون فى قلوب آخرين أفزعهم حال الناس فى المشارق والمغارب ، الطمأنينة والسكينة ، تتقدمهم أعلام نقشوا عليها قول الله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .